

تصدّي مالكية المغرب الإسلامي لظاهرة الغلوّ في التكفير خلال العصر الوسيط

د. أمين كرتالي

KARTALIAMINE@GMAIL.COM

جامعة أبو القاسم سعد الله-الجزائر 2

الملخص:

خلال العصر الوسيط، عرف المغرب الإسلامي ظهور عدّة مذاهب فكريّة ومقالات عقائديّة كان له أثر في الحياة السياسية والثقافية والدينية والاجتماعيّة، وأدى فقهاء المالكية دورا ملفتا من أجل محاربة هذه الأفكار والعقائد، ومن جملة تلك الأفكار والمقالات نذكرُ مقالة الغلوّ في التكفير. وقد حاول الفقهاء التصدّي لهذه المقالة، وبيّنوا للناس خطرها، وأيدوا العمال في قتالهم لمن يحمل تلك الأفكار والعقائد. كما ساهم الفقهاء في صرف التّاس عن أبي يزيد بن كيداد، بعد أن قاموا بتأييده، حين خذلهم وتخلّى عنهم، ومنذ ذلك الحين تشدّد الفقهاء في التّعامل مع بقايا الفرق الخارجيّة كالوهبية والنكارية وغيرهم. ومع قيام دولة الموحّدين وذيوع علم الكلام بدأ تكفير المقلّد في العقائد والحكم بعدم صحّة إيمانه يظهر عند المشتغلين بعلم الكلام، ممّا دفع بالفقهاء إلى التصدّي لهذه الظّاهرة والرّد على المروّجين لهذه المقالة.

الكلمات المفتاحية: الخوارج؛ المغرب الإسلامي؛ الفقهاء المالكية؛ علم الكلام؛

التكفير.

Abstract:

During the Middle Ages, the Islamic Maghreb knew the emergence of several doctrinal, that had an impact on political, cultural, religious and social life. The scholars of the Malikya played a prominent role in combating these ideas and beliefs. Among the hard-line beliefs is the doctrine of " takfir" the society .- Any description of the Muslim community as an infidel- .

The scholars of the Maliki school fought this doctrine, which emerged since the days of the Kharijis and then repeated on various occasions.

Keywords : The Kharij; the Islamic Maghreb; the Maliki jurists; the Islamic controversy-El Kalam- ; El Takrir.

تُعتبر مقالة تكفير أهل القبلة، وما نجم عنها من سفك للدماء و استحلال للأموال والأعراض، من الأمراض التي نخرت جسم الأمة الإسلامية منذ مقتل الخليفة الرّاشد عثمان بن عفّان رضي الله عنه، وما أعقبه من ظهور لفرق الخوارج، وقيامهم باستحلال دماء المسلمين وأعراضهم.

وإذا كانت هذه المقالة قد ظهرت أوّلا في بلاد المشرق، فإنّها سرعان ما بدأت تنتشر في بلاد المغرب الإسلامي منذ أواخر العهد الأموي، وتكرّر ظهورها في عدّة مناسبات، وفي صور وأشكال مختلفة. وسنحاول في هذه المقالة أن نتناول جذور هذه الظاهرة في بلاد المغرب الإسلامي، ساعين إلى الكشف عن تجلياتها المختلفة طيلة العصر الوسيط، إضافة إلى محاولة معرفة دور الفقهاء في التصدّي لهذه وأشكال هذا التصدّي.

أ - مقالة الغلو في التكفير بالمغرب الإسلامي في القرن الثاني للهجرة:

انقرضت كلمة الخوارج، وانكسرت شوكتهم في بلاد الشام والعراق بالمشرك الإسلامي عقب زوال فرقة الأزارقة التي قُضي على أبرز زعمائها خصوصا قطري بن الفجاءة وعبيدة بن هلال سنة 77هـ/696م على يد المهلب بن أبي صفرة، وأيضا بعد تلاشي أمر الخوارج التّجدات الذين فتك عمر بن عبيد الله بن معمر بزعيمهم أبي فديك سنة 72هـ/691م¹.

وبعد أن استلحم السيف الخوارج لم يتبقّ منهم إلا شذاذ متفرّقون في الأمصار بادر الولاة بالنواحي إلى التصدّي لهم، ففرّوا إلى الأطراف بعيدا عن قبضة الخلافة وجيوشها، فمنهم من فرّ إلى بلاد عمان والبحرين وأقاصي بلاد اليمن وفارس، فيما رأت جماعات منهم أنّ بلاد إفريقية والمغرب هي أنسب مكان لإعادة تجميع صفوفها، ففرّ كثيرٌ منهم إلى بلاد المغرب الإسلامي، ويلاحظ أنّ هؤلاء الفارّين إلى بلاد إفريقية والمغرب قد اجتنبوا الصّدّام المسلّح مع العمّال، مركزين جهودهم على نشر الدّعوة بين القبائل البربريّة خصوصا في البوادي والمجالات المتاخمة للمدن².

ولاشكّ أنّ بقايا الخوارج الذين لجأوا إلى أطراف العالم الإسلامي، وخصوصاً في إفريقية والمغرب، كانوا قد هدّبوا مقاتلتهم، وصاغوها صياغة جديدة، تسعى إلى تبييض صورة مذهبهم، وتهذيب تعاليمه، مُستفيدين من تجاربهم السابقة التي ساهمت في نضج وعيهم السياسي والاجتماعي والديني، إضافة إلى احتكاك رموزهم بأقطاب المعتزلة؛ ومعلوم أنّ المدارس الكلامية قد لعبت دوراً مهماً في بلورة الفكر الخارجي. لذلك يظهر جلياً أنّ أوائل الخوارج الذين وصلوا إلى بلاد الأطراف كانوا بمثابة دعاة مُحَنِّكين، لم يُصَرِّحوا بأفكارهم وانتمائهم، بل حاولوا الظهور في صورة المصلحين السياسيين والنّاقمين الاجتماعيين، المساندين للمظلومين في محنتهم، الرّافضين ترف الدّنيا ونعيمها الزّائل، والمقبّلين على العبادة والزّهد والطّاعة مع اكتفائهم بالدّعوة إلى الإصلاح³، وبذلك نظر إليهم البربر نظرة احترام وتوقير.

وتشير الرّواية الإباضية أنّ حظّ المغرب الإسلامي من هؤلاء الدّعاة كان قائمتين علميتين لا يُستهان بهما، وهما سلمة بن سعيد، وعكرمة مولى بن عباس إمام التّفسير، واللذان يُعتبران من أوائل الدّعاة إلى المذهب الإباضي⁴ والصّفري⁵، فسلمة كان يدعو إلى مذهب الإباضية وعكرمة يدعو إلى مذهب الصّفرية⁶.

وقد نشطت الصّفرية في المغرب الأقصى، وتمكّن عكرمة من وصل يده بميسرة المطغري، كما تتلمذ على يد عكرمة أبو القاسم سمكو بن واسول شيخ مكناسة في القيروان، ولازمه حتّى موته سنة 105هـ/723م، واستطاع أبو القاسم أن ينشر المذهب بين قومه بمكناسة، ثمّ اتّجه نحو المناطق الصحراوية الجنوبية لبثّ الدّعوة، فنشط بتافيلت ملتقى القبائل الرعوية، واعتنق بربر برغواطة تعاليم الصّفرية، على يد طريف بن شمعون، الذي أخذ العلم عن عكرمة بالقيروان⁷.

و انتشر المذهب الصّفري في قبائل زنّانة، وقد ضرب بنو يفرن فيه بسهم وانتحلوه⁸، وانتشر المذهب في عرب الفتح، وأيضاً اعتنقه كثيرٌ من الأفارقة، و نبغ شيخهم عبد الأعلى بن جريج في المذهب، ورسخت فيه قدمه⁹.

أما المذهب الإباضي فاعتنقته قبائل هوراة وملاية وزناتة وسدراتة وزواغة ولواتة وبعدهم مطماطة، وتمّ إرسال بعض معتنقي المذهب منهم للتزوّد بالبصرة، مثل عاصم السدراتي من غرب الأوراس، وأبو داود القبلي النفاوي وإسماعيل بن درار من غدامس، وانضمّ إليهم عبد الرحمن بن رستم من القيروان، وهؤلاء هم الذين عرفوا بحملة العلم، فظلّوا في صحبة أبي عبيدة مسلم خمس سنوات، يتلقون العلم على يديه، ثمّ أرسلهم أبو عبيدة إلى أحد أتباعه من العرب، ويُدعى أبو الخطاب عبد الأعلى بن السّمح المعافري ليتولّى إمامة الظّهور، كما أسند القضاء لإسماعيل بن درار الغدامسي، وعلمه أصول الفقه والافتاء¹⁰، ونلاحظ أنّ المذهب الإباضي لقي قبولا أكثر لأنّه لا يدعو إلى القيام على الدّولة وإنّما يدعو النّاس الذين يؤمنون بآراء أصحابه، إلى إقامة نظام سياسي لهم في النواحي التي لا تستطيع الدّولة الوصول إليها، وهم يأذنون لأتباعهم بالتعامل مع النّاس تاركين الحساب لله سبحانه وتعالى، وبسبب هذه التعاليم استمرّ هذا المذهب إلى يومنا هذا¹¹، بخلاف مذهب الصفرية الذي سرعان ما اختفى، لا سيما بعد أن شارك في ثورتهم الكثير من البربر الذين لم يكن همّهم الإسلام والعدالة، بقدر ما كان يدفعهم الحقد على العرب ووطأة العمّال عليهم، لذلك شارك في ثورة الصفرية الكثير من القبائل التي لم تدخل بعد للإسلام¹².

- أسباب انتشار دعوة الخوارج:

ساهمت عدّة عوامل في انتشار مذهب الخوارج، ومن تلك العوامل ما شهدته ولاية إفريقية من ظلم من بعض عمّال بني أمية خصوصا مع خلافة يزيد بن عبد الملك والذي قام بعزل عمّال عمر بن العزيز عن الولايات والأمصار، فقام بعزل إسماعيل بن عبيد الله سنة 101هـ/728م، والذي كان حسن السيرة، وأسلم على يديه عددٌ كبير من البربر، وعيّن مكانه يزيد بن أبي مسلم كاتب الحجّاج، والذي حاول أن يُعامل أهل إفريقية كمعاملة الحجّاج بن يوسف لأهل العراق، فأخذ موالي موسى بن نصير من البربر فوشم

أيديهم وجعلهم أحماسا، وأحصى أموالهم وأولادهم ثم جعلهم حرسه وبطانته، فثارت
ثائرة البربر، واتفقوا على قتله سنة 102هـ/729م¹³.

ونلاحظ أنّ الخلافة الأمويّة قد تفهّمت ردّة فعل البربر وحاولت امتصاص غضبهم،
حتى لا تفتح على نفسها جبهة أخرى هي في غنى عنها، وهو ما يؤكّده تعامل الخليفة مع
رسالة سكّان افريقية بعد مقتل يزيد بن أبي مسلم حيث كتبوا إلى يزيد بن عبد الملك: ((
إنّا لم نخلع يدا من طاعة، ولكنّ يزيد بن أبي مسلم سامنا ما لا يرضى به الله ورسوله،
فقتلناه وأعدنا عاملك))، فكتب إليهم يزيد: ((إني لم أرض ما صنع ابن أبي مسلم)).
كما أقرّ الخليفة يزيد بن عبد الملك محمّدا بن يزيد على المغرب سنة 102هـ/729م¹⁴.
ومع ذلك فإنّ الأمويين لم يعتبروا بمثل هذه الحادثة، ولم يستقوا الدروس، واستمرّوا في
غضّ الطرف عن ظلم العمّال، مادامت سياسة هؤلاء العمال كانت تُكسبهم الكثير من
السّي والأموال، و تكرر الظلم أيتام عمر بن عبد الله المرادي عامل عبيد الله بن الحبحاب
على طنجة، ويقول عن ذلك ابن عذارى: ((فكان فعله الدّميم هذا سببا لنقض البلاد،
ووقوع الفتن العظيمة المؤدّية إلى كثير القتل في العباد، نعوذ بالله من الظلم الذي هو وبال
على أهله¹⁵)).

ومن أسباب انتشار دعوة الخوارج ما عرفه المغرب الإسلامي من صراع بين عرب الشام
من قيس والعرب اليمنيّة من كلب¹⁶، والذي لم يسلم منه حتى موالي القيسيّين واليمنيّين
من البربر¹⁷. وذلك أنّ غالبية عرب المغرب كانوا من اليمنيّين فكانوا يلتزمون الهدوء حين
يكون ولاتهم من اليمنيّين، أمّا إذا كان الولاية من القيسيّة فإنّ المغرب يُصبح مسرحا
لاضطرابات عنيفة، مثلما حدث بعد وفاة بشر بن صفوان حيث صادف ذلك تحوّل
ميول الخليفة هشام بن عبد الملك عن اليمنيّة إلى القيسيّة، ومن ثمّ ولى على المغرب عبيدة
بن عبد الرحمن السلمي، وكان من غلاة القيسيّة، فقدم إلى المغرب في ربيع الأوّل سنة
101هـ/728م، وما إن صارت الأمور إليه حتّى اشتدّ في معاملة اليمنيّين شدّة لا مثيل
لها، فزجّ بهم في السّجون، واغتصب منهم أموالا كثيرة، ولقي البربر منه نفس المعاملة¹⁸.

وقد أسفر ذلك عن ظهور بعض التقارب بين البربر والعرب، خصوصا أولئك العرب الذين كانوا على مذهب الخوارج¹⁹.

ومن أسباب ذبوع عقيدة الخوارج أيضا وتفشيها في وسط القبائل البربرية، بروز العصبية البربرية في مقابل العصبية العربية، وقد كان مذهب الخوارج يدعو يقول بعدم اشتراط قرشية الإمام ولا عربيته، وقد شبه بعض المستشرقين هذه الحركة بما عرفه الشمال الإفريقي من انتشار للحركة الدوناتية أثناء الحكم الروماني على افريقيا²⁰.

وكان لسياسة عمّال بني أمية دور كبير في بروز هذه النزعة القومية، خصوصا بعد اعتبارهم بلاد افريقية والمغرب أرض فيئ²¹، ومعاملتهم للبربر على أهم سي، و الإثخان في أرضهم، وترديد البعث عليهم، فلو نظرنا فقط إلى غزو عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري لأرض السّوس ووصوله إلى أرض السودان، وإثخانته في قبائل البربر، واستكثاره من السبي لعرفنا نوعية المشاعر التي بات البربر يكتنّها لعمّال الأمويين²².

و تخبرنا كتب التاريخ أيضا أنّ عبيدة بن عبد الرحمن قد أسرف في سبي نساء البربر، وبالغ في غزو قبائلهم، وحين سار إلى دمشق في شوال سنة 114هـ/732م، حمل ما جمعه من أموال وهدايا ليُقدّمها إلى هشام بن عبد الملك، وكان فيما خرج به من العبيد والإماء، و من الجوّاري المتخيرة سبعمائة جارية وفي ذلك من الخصيان والخيل والدواب والذهب والفضّة والآنية، وهنالك طلب من هشام أن يعفيه من ولاية الغرب فأعفاه²³.

يُضاف إلى هذه العوامل حداثة إسلام الكثير من البربر، قد جعلهم يرون في التعاليم الخارجيّة أنّها الإسلام الصّحيح، بما نادى به من عدل و مساواة ورفض للظلم، وحظّ على الشورى التي يشبّهها البعض بالديمقراطية النسبية، و كانت عقلية البربر تتوافق إلى حدّ كبير مع هذه التعاليم وتحمّس لها²⁴.

ومن عوامل انتشار هذا المذهل أيضا وضوح فكر الخوارج وظاهرته، وعدم ميله إلى، الفلسفة وهو ما جعله يتلاءم مع عقلية البربر، إضافة إلى ما تميّز به البربر من صفات

الصّلافة والقوّة التي يشترك فيها البربر مع الخوارج، وهكذا كانت مبادئ الخوارج متوائمة مع طباع البربر الفطريّة، فقد لاحظ كوني أنّ مناطق الثورة تتمثّل في مواطن زنانية انطلاقاً من طرابلس الغرب، وأنّ هذه الثورة الزنانيّة تتشابه من بعض نواحيها مع الطّبيعة الزنانيّة التي هي طبيعة الرّحل، حيث يستحيل خضوعهم لقيادة موحّدة، بينما لم تقم المدن بأكثر من دور التأييد لهذه الثّورة²⁵. كما يمكننا القول أنّ المذهب الخارجي قد حمّس زعامات بربريّة كثيرة لاعتناقه، بسبب تماثيّه مع أهدافهم وطموحاتهم السياسيّة ونزعاتهم القوميّة²⁶. لذلك نوافق حسين مؤنّس كثيراً حين قال أنّ أبا قرّة كانت خارجيّة سياسيّة أكثر من كونها مذهبيّة²⁷.

- الثورة الخارجيّة الكبرى ونتائجها:

انطلقت الثّورة الخارجيّة في بلاد المغرب الأقصى سنة 122هـ/739م على يد الصّفرية في عهد عبيد الله بن الحبحاب الذي ولى عمر بن عبد الله المرادي فأساء السيّرة وتعدّى في الصّدقات والقسم، وأراد أن يخمّس البربر، وزعم أنّهم فيء للمسلمين، كما ولى ابنه ولاية السوس الأقصى فاستبدّ بالبربر هناك، وكثّر عبثه بنسائهم، وجوره على أموالهم²⁸، كلّ ذلك ابتغاء الوسيلة عند الخلفاء، وتقريباً إليهم، ومحاولة لكسب رضاهم.

وكان الخليفة هشام بن عبد الملك يطالب عبيد الله بن الحبحاب بالمال والسبايا، لذلك قاد حملة جابت بلاد المغرب وأصابت من السّي والذهب أمراً عظيماً، وبثت الرّعب والفرع في تلك النّواحي²⁹. وأحسن البربر أنّهم طعمة للعرب، وثقلت عليهم وطأة عمّال ابن الحبحاب بما كانوا يُطالبونهم به من الوظائف البربرية، مثل الأدم العسليّة الألوان، وأنواع طُرف المغرب، فكانوا يتغالون في جمع ذلك وانتخابه حتى كانت الصّرمة من الغنم تملك ذبحاً لانتخاذ الجلود العسليّة من سخالها، وبدأ دعاة الصّفرية يُلاحظون استياء البربر من هذه التجاوزات المفضوحة لتعاليم الإسلام الصّحيح، لذلك استغلّوا الفرصة للطّعن في العمّال والخليفة، إلى أنّ البربر كانوا يظنّون أنّ هؤلاء العمّال يظلمون بمحض هواهم، ويرون أنّ الخليفة لا يعلم بما يقومون به، فترجم ميسرة المطغري وفدا من

البربر إلى الشّام ليشكوا إلى الخليفة هشام بن عبد الملك جور عمّاله، ومُرادَه من ذلك هو إقامة الحجّة التي هي شرطٌ قبل نصب الحرب، لكنّ الحراس بدمشق منعوا الوفد من لقاء الخليفة، وأدرك البربر تواطؤ الخليفة، فبايعوا ميسرة بالإمامة على إثر عودته³⁰. واستغلوا فرصة مسير العساكر مع حبيب بن أبي عبيدة إلى صقلية، فجزّأهم ذلك على مرادهم، وثار ميسرة المطغري بأحواز طنجة، ليكون خروجه بداية حركة رهيبة عجّلت بتقلّص الحكم العربي في الغرب الإسلامي، وكانت من أقوى البواعث والأسباب في حرق حجاب الهيبة على الخلفاء وانتفاض البربر على العرب ومزاحمتهم لهم في سلطانهم³¹.

ولم يكن ردّ فعل الخليفة بالشّام مُساعدًا على تلافي الفتنة، بل اكتفى بالحلّ العسكري النَّابع من شعور عنصري صادر من نفس متعالية، يلخّصه قول هشام بن عبد الملك: (والله ! لأغضبنّ لهم غضبة عربيّة، و لأبعثن لهم جيشا أوّله عندهم وآخره عندي³²)).

لقد كان من نتائج هذه الغضبة أن خسرت الخلافة الأمويّة الكثير من جندها دون أن تحمد الثورة الخارجية التي أصبحت ثورة بربرية. وكانت الصفرية هي السبّاقة إلى الثورة، وقد وصلت جموع الصفرية الرّاحفة إلى أرض افريقية، وتمكّنت من دخول القيروان، لتقوم بعدها الإباضية بإعلان إمامة الظهور.

ويسرد لنا ابن الأثير سبب خروج الإباضية، فيقول أنّه اتّفق أنّ رجلا من الإباضية دخل القيروان لحاجة له، فرأى ناسا من الورفجوميين وكانوا ينتسبون إلى المذهب الصفري قد أخذوا امرأة قهرا، والنّاس ينظرون فأدخلوها الجامع، فترك الإباضي حاجته، وقصد أبا الخطّاب عبد الأعلى بن السّمح المعافري فأعلمه بذلك، فخرج أبو الخطّاب وهو يقول: ((بيتك اللهم بيتك))، فاجتمع إليه أصحابه من كلّ مكان، وقصدوا طرابلس الغرب، واجتمع إليه النّاس من الإباضية ومن شايعهم، وسيّر إليهم عبد الملك مقدّم ورفجومة جيشا فهزموه، وساروا إلى القيروان، فخرجت إليهم ورفجومة واقتتلوا قتالا شديدا فانهم أهل القيروان الذين مع ورفجومة، فتبعتهم ورفجومة، وقتل عبد الملك الورفجومي، وتبعهم

أبو الخطاب يقتلهم حتّى أسرف فيهم، وعاد إلى طرابلس واستخلف على القيروان عبد الرحمن بن رستم الفارسي وذلك سنة 141هـ/758م³³.

- نتائج الثورة الخارجيّة الكبرى:

أسفرت الثورة الخارجيّة عن نهاية النفوذ الأموي في المغرب الإسلامي، و تقلّصت أعداد العنصر العربي بسبب ضراوة المعارك، وما تولّد عنها من أعداد وفيرة من القتلى، والتي دفعت بكثير من العرب للعودة إلى المشرق أو الرّحلة صوب الأندلس، وحلّصت أرض إفريقية للعبّاسيين بفضل براعة عمّالهم، لا سيما عمر بن حفص، الذي أعمل الحيلة لتفريق البربر بشتى نحلهم³⁴.

وساهمت الصّراعات الداخليّة في تشتيت الصّفويّة وإضعاف قواهم، فقد قام الخوارج بقتل زعيمهم ميسرة، بسبب ما نغموه عليه من اجتهادات، رأوا فيها أنّها تتصادم مع الشّريعة³⁵. وهي الاجتهادات التي حتمتها عليه التحديّات التي واجهها³⁶. فيما استقلّ بنو مدرار الصّفويّين بإقليم سجلماسة، كما استقلّ بنو رستم الإباضيّين بتيهرت³⁷، واستقلّ جبل نفوسة عن الخلافة العبّاسيّة، وأصبح مشيختهم يوالون إلى فترة طويلة إخوانهم الرستميين، إلى أن حدث خلاف بين الرستميين ومشيخة نفوسة، فاستقلّت مشيخة جبل نفوسة، وشكّلت شبه دويلة مستقلّة.

وحين عجز العبّاسيون عن إعادة الأمور إلى نصابها، قبل خلفاؤهم بالتبعية الإسميّة من الأغلبية الذين حكموا إفريقية، وسعى الأغلبية إلى مقاومة الحركات الخارجيّة³⁸. وبعد أن قضى العبيديون على إمارتي بني مدرار والرستمية، لجأ الإباضيّة إلى إقليم ورجلان وأقاموا على انتحال مذهبهم، متخلّصين من سطوة الحكّام³⁹.

وكان من نتائج هذه الثورة تنامي القومية البربريّة، وقد مكنت تعاليم المذهبين الإباضي والصّفري التي تبيح قمع المخالف بعد نصب راية القتال وإقامة الحجّة واستباحة دمه وماله من إعطاء مبرّر لأتباع هاذين المذهبين من استباحة دم المخالف وماله، خصوصا الصّفريّة⁴⁰. والتي لم تقم بالدعوة كما يجب، بل عملت على تكثير سوادها، والاكتفاء

من الأتباع بالتأييد والموافقة، ولذلك ركبت موجة هذا المذهب أعداد كبيرة من القبائل البربرية التي لم تكن ربّما أسلمت بعد، وكانت تتحرّك وفق نزعة قومية بربرية ناقمة من العرب، وراغبة في استئصالهم، فقبيلة ورفجومة قامت بأعمال مشينة، ظلّت وصمة عار في جبين الصفرية، جعلت الإباضية يغضبون الله، ويشورون ضدّ همجيتها، خصوصا بعد أن استولت ورفجومة على القيروان وسائر إفريقية وقتلوا من كان بها من رجالات قريش وربطوا دوابهم بالمسجد الجامع، واشتدّ البلاء على أهل القيروان ونكّلوا بالعرب أشدّ تنكيل⁴¹. ولذلك كان الفقهاء والمؤرّخون كثيرا ما يُسمّون ثورات الصفرية بأثا ثورات بربرية، فيقولون ثارت البربر، أو فلان قُتل في موقعته ضدّ البربر.

- دور الفقهاء في التصدي للخوارج:

رأى عمّال إفريقية الجُدّد ضرورة الاستنجاد بالفقهاء للتصدي للفكر العقدي الخارجي، وأوّل من استنجد بالفقهاء من العمّال حنظلة بن صفوان، والذي استشار علماء إفريقية الذين بعثهم عمر بن عبد العزيز إليها ليفقهوا أهلها في الدين، منهم سعد بن مسعود وحبّان بن أبي جبلة وطلق بن جابان، فكتبوا له رسالة ليقندي بها المسلمون ويعقدوا ما فيها⁴²، وكانت هذه الرسالة في فحواها تدعو إلى ترك التنطّع في الدين، وردّ التنازع إلى الله ورسوله.

إضافة إلى ذلك قام فقهاء آخرون بتعبئة الجماهير، و تنبيه الناس إلى خطر هذه الدّعوات، وحشدتهم لقتال أصحابها. ففي موقعة الأصنام التي حشد فيها حنظلة بن صفوان أهل القيروان ضدّ عبد الواحد بن يزيد الهواري الصّفري، وعكاشة بن أيوب الفزاري، قام العلماء في أهل القيروان يحثّونهم على الجهاد وقتال الخوارج، ويُدكّرونهم ما يفعلونه بالنساء من السّي وبالآبناء من الاسترقاق، وبالرجال من القتل، فكسر الناس أجفان سيوفهم، وخرجت إليهم نساؤهم يُحرّضنهم، فحمي الناس وحملوا على الخوارج حملة واحدة، وقد قيل أنّ عدد القتلى قارب المائة وثمانين ألف ثمّ أسر عكاشة، وكان

الليث بن سعد يقول: ((ما غزوة إلى الآن أشدّ بعد غزوة بدر، من غزوة العرب بالأصنام⁴³)).

ولم يكتف الفقهاء بدور الوعظ والتذكير، وتعبئة الجماهير، بل بادروا إلى قتال الخوارج بأنفسهم، مثل أبي الأشعث ربيعة بن يزيد مولى أبي سفيان بن حرب الذي كان معدودا في التابعين، فقد خرج مع جيش كلثوم بن عياض القشيري لقتال الخوارج وقُتل سنة 123هـ / 740م⁴⁴. ومن الفقهاء الذين قاتلوا الخوارج نجد أبا محمد خالد بن أبي عمران التجيبي الذي قاتل الصفرية يوم القرن، ويُذكر في ترجمته أنّه قتل ابن عمّ عبد الواحد الزناتي زعيم الصفرية آنذاك.

فيما حاول بعض الفقهاء الدّفاع عن القيروان ومنع الصفرية من دخولها بعد هزيمة عبد الرحمن بن حبيب أمام زعيم الصفرية عاصم بن جميل، وعلى رأس هؤلاء الفقهاء كان القاضي أبو كريب جميل بن كريب المعافري، والذي تذكر كتب التّراجم أنّه كان حسن السّيرة في قضائه، وقد سُمي الواد الذي قُتل به باسمه تخليدا لتلك الواقعة سنة 139هـ / 756م. وقُتل مع أبي كريب كثيرٌ ممّن خرج معه من أهل البصائر حوالي ألف رجل، فيما تخاذل الباقون من أهل القيروان⁴⁵. وممّن شارك في قتال الخوارج بموقعي القرن والأصنام أبو عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن غنم أحد أصحاب مالك بن أنس، وكان على ساقّة الناس، وتقول الرواية أنّ عمر بن غنم قتل منهم مائة وثمانين⁴⁶.

وفي الوقت الذي كان الفقهاء يجتهدون في مُحاربة الخوارج، كانوا على قدر من الدّيانة التي أكسبتهم الكثير من المصدّقية فلم يكونوا في نظر العامّة من علماء السّلاطين، بل قاموا بإبداء رفضهم لجور العمّال؛ فحين تغلّب الخوارج على القيروان وفد على الخليفة بعض رجالاتها وكان فيهم الفقيه عبد الرحمن بن زياد، فسأله الخليفة: كيف رأيت ما وراء بابنا...؟، فأجابته: ((ظلما فاشيا وأمر مستقبحا)). فقال له: ((لعلّه فيما بعد من بابي))، فردّ عليه: ((كلّما قربت من بابك استفحل الأمر وغلظ))⁴⁷. كما كان أبو محمد عبد الله

بن فروخ الفاسي، مع كونه كثير الردّ على أهل البدع من الخوارج وغيرهم، رجلاً فاضلاً صالحاً متواضعاً في نفسه، قليل الهيبة للملوك في حقّ يقوله، لا يخاف في الله لومة لائم⁴⁸. ولا شك أنّ الفقهاء كانوا مُستائنين من أفعال العمّال وجورهم، فحين أرسل يزيد بن حاتم إلى ابن فروخ يسأله عن دم البراغيث في الثوب، هل تجوز الصلاة فيه...؟ فأجابته: ما أرى به بأساً، وقال بحضرة الرسول: ((يسألوننا عن دم البراغيث ولا يسألوننا عن دماء المسلمين التي تُسفك⁴⁹)). وكان أسد بن فرات يسوّي بين المبتدع والإمام الجائر، فكان يقول: (ثلاثة لا غيبة فيهم؛ صاحب بدعة، وأمير غشوم، ومن ألقى جلاباب الحياء وظاهر بالسوء⁵⁰).

ب- مقالة التكفير خلال الفترة الفاطمية وموقف فقهاء المالكية منها:

حين تمكّن الفاطميّون من بسط نفوذهم على شمال إفريقيا سنة 296هـ/909م، سعى بعض المتحمّسين لمذهبهم من قبائل كتامة، وبعض من تشرّق من الأحناف وبعض المالكية إلى التضييق على أهل السنة المالكية، وأظهروا سبّ الصحابة رضي الله عنهم، كما ألزموا أهل السنة ببعض شعائرهم، كزيادة حي على خير العمل في الأذان، وترك صلاة التراويح وغيرها، وكان نصيب من حاول مخالفتهم الضرب أو القتل.

وقد قُتل الفقيه أبو علي حسن بن مفرّج، والزاهد محمد الشذوني، بسبب تفضيلهما أبا بكر وعمر على عليّ رضي الله عنه، وبسبب إنكارهما بعض الظلم وتصدّيها له⁵¹. كما ضُرب محمد بن العباس الهندي الفقيه في الجامع عُريانا، وُصِّف قفاه حتى جرى الدّم من رأسه، وُبُرح عليه في أسواق القيروان، إذ شهد عليه قوم من المشاركة بأنّه يطعن على السلطان ويُفتي بقول مالك⁵².

وبسبب هذه التصرفات الاستفزازيّة والقهر المسلّط على أهل السنة المالكية على وجه الخصوص، ظهر في قبائل زناتة رجل يُكَنَّى بأبي يزيد، ويعرف بالأعرج صاحب الحمار، واسمه مخلد بن كيداد⁵³، من بني يفرن، وكان يتحلّى بُنسك عظيم، حتى أنّه كان يلبس

حبة صوف قصيرة الكمين، ويركب حماراً، وذاع صيته في قبائل زناتة، و تقول الرواية السنية أنه كان نكاريًا، يُحلل دماء المسلمين وفروجهم، ويسبّ عليّ بن أبي طالب⁵⁴.

وقد استطاع أبو يزيد أن يتغلّب على الفاطميين، ثم ظلّ يهدّد دولتهم طيلة الفترة الممتدة من (331-336هـ/942-947م)، فتحركّ الناس لقيامه، واستجابوا له وفتح البلاد، ودخل القيروان سنة 331هـ/742م، وفرّ إسماعيل بن عبيد الله إلى مدينة المهديّة، فنفر الناس مع أبي يزيد الى حربه. وأيّده فقهاء القيروان من المالكية، ودعوا الناس إلى نُصرتّه، لاعتبارهم إياه من أهل القبلة، بخلاف بني عبيد، وقد كان أبو إسحاق السبائي، يقول ويشير بيده إلى أصحاب أبي يزيد: ((هؤلاء من أهل القبلة لقتالهم. فإن ظفرنا بهم، لم ندخل تحت طاعة أبي يزيد، والله يسلّط عليه إماماً عادلاً، يخرجنا عننا⁵⁵)).

ومن بين الفقهاء الذين خرجوا مع أبي يزيد كما يحكي أبو عبد الله بن محمد المالكي؛ أبو الفضل الممسي، وربيع بن سليمان القطان، وأبو العرب بن تميم، وأبو إسحاق السبائي، وأبو عبد الملك بن مروان بن منصور الزاهد، وأبو حفص عمر بن محمد الغسال، وعبد الله بن محمد الشقيقي، في جماعة المدنين، وابراهيم بن محمد المعروف بالعشاء الحنفي، وغيرهم. ولم يخلف من فقهاء المدنين المشهورين، إلا أبا ميسرة لعماه، لكنه مشى شاهراً للسلّاح في القيروان مع الناس، وتوجهوا إلى الشيخ الممسي ليرؤا رأيه في ذلك. فوافقهم على الخروج، وخرج معهم رغم مرضه⁵⁶، وقام علماء القيروان برفع البنود عليها شعارات سنية، ومن ذلك البندان اللذان رفعهما ربيع بن سليمان القطان وقد كتب على أحدهما "بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله" وفي الآخر كتب: "نصر من الله وفتح قريب على يد الشيخ أبي يزيد اللهم انصر وليك على من سبّ نبيك وأصحاب نبيك"⁵⁷.

لكنّ أبا يزيد سرعان ما كشف عن سوء نيّته، فلما رأى أنّه على وشك غلبة العبيديين، أظهر ما أكنّه من الخارجية. وقال لأصحابه: ((إذا لقيتم القوم فانكشفوا عن علماء القيروان، حتى يتمكن أعداؤهم منهم. فقتلوا منهم، من أراد الله سعادته، وورقه

الشهادة. فمنهم الممسي، وربيح، ومحمد بن علي البقال. وكان نبيلاً⁵⁸). وساهمت هذه الواقعة في انفضاض الفقهاء المالكية وأتباعهم من عوام أهل السنّة عن أبي يزيد، وهو ما أدّى إلى زوال الحاضنة الشعبية التي كانت رأس مال أبي يزيد في صراعه أمام العبيديين، فلم يلبث أن توالى عليه الهزائم، لينتهي الأمر به قتيلاً. وقد استخلص فقهاء المالكية العبر من هذه الواقعة، لذلك نجدهم لم يؤيّدوا ثورة أخرى قام بها بعد زعماء الإباضية ضدّ العبيديين، والتي لم تحظ بالدعم والحاضنة الشعبية كثورة أبي يزيد، وهي ثورة أبي خزر يغلي بن زلتاف الوسياني الإباضي من علماء الإباضية الوهبيين المعتدلين، وقد قام بالثورة مع أبي نوح سعيد بن زنجيل الوسياني بثورة مضادة ضد الفاطميين في بلاد قسطنطية سنة 358هـ/968م⁵⁹.

- فتاوى الفقهاء ضدّ بقايا فرقة الإباضية بعد ثورة أبي يزيد:

بعد قضاء الفاطميين على ثورة أبي يزيد استمرّ الفقهاء في محاربة بقايا الفرق الخارجيّة الأولى بما فيها الحركات المعتدلة كالإباضية، فكان الفقهاء يفتون بعدم جواز تعليم أولاد الخوارج القرآن والكتابة، كما أفتى بذلك السيوري حين سُئل: ((عن تعليم أولاد الخوارج القرآن والكتابة؟))، فأجاب بقوله: ((يُمنع من تعليمهم أينما كانوا)). كما أجاز إطلاق اللعنة عليهم، وعلّل ذلك بكونهم مسلمين أهل كباثر⁶⁰.

وفي نازلة أخرى سئل الشيخ أبو القاسم السيوري رحمه الله عن قوم من الإباضيّة تمسّكوا بمذهب الوهبية بالمغرب و أمّهم سكنوا بين أظهر المسلمين يظهرون بدعتهم، فاستولى على البلد من أحمد ذكرهم و غلب عليهم، فأراد أن يهدم مسجدا كانوا يُصلّون فيه، وفسخ أنكحتهم المتقدّمة، لأنّ الرجل الوهبي كان يتزوّج المرأة المالكيّة لتقوى شوكته بمصاهرة أهل السنّة وأراد هذا المتولّي سجنهم وضرّهم حتّى يرجعوا إلى مذهب مالك، فهل له ذلك أو لا؟.

ويتّضح من نصّ النازلة أنّه كان يوجد نوع تعايش بين الوهبية وأهل السنة، وأنّ جماعة الوهبية كانوا يتصرّفون بحريّة ويظهرون اعتقاداتهم. وربّما كانت لهم شوكة تحمي جماعتهم،

كما أنّ نصّ السؤال وطرحه، يكشف عن حالة من الشكّ في جواز الفعل الذي قام به هذا المستولي على البلد، بل وحتىّ المستولي على البلد كان في شكّ من أمره فانتظر قول الفقهاء في ذلك، وكان جواب السيوري مؤيِّدا للمتعلّب وحاثا له على المبادرة إلى وأد جماعتهم فقال: ((أما هدم المسجد الذي كانوا يُصلُّون فيه فلا، لكن يُجلى منهم ويعمر بأهل السنّة، ويمنع الغرابة من الدّخول إليهم والتصرّف عندهم، ومنعهم من ذلك عين الحقّ والصّواب، والنكاح الذي أحدثوا من نساءنا يُفسخ، وسجنهم وضربهم إن لم يتوبوا من الأمر الحقّ ويردون إلى مذاهب أهل السنّة، ومن قدر على ما ذكرناه فيلزمه فعل ذلك⁶¹)).

ونفس النازلة سُئل عنها الإمام اللخمي فقد سُئل: ((عن قوم من الإباضية انتحلوا مذهب الوهبيّة، وسكنوا بين أظهر المسلمين مدّة من السنين، فلما كان الآن أظهروا مذهبهم وأعلّوه وبنوا مسجدا يجتمعون فيه بخلق من الغرابية، يُظهرون مذهبهم في بلدة فيها، وصار الغرباء من كلّ الجهة يأتون إليهم بالأطعمة، وتبسط عندهم الضيافات، ويقيمون عندهم الأيام الكثيرة، ويصلُّون الأعياد في مُصلّى بالقرب من أهل السنّة، فما ترى فيمن كان بهذه الصّفة؟ هل يجب على من بسط الله يده في البلدة ومكّنه منعهم ممّا أظهروه و استتابتهم وسجنهم وضربهم إن لم يمتنعوا من ذلك)).

وقد أجاز اللخمي بمثل كلام السيوري السابق، لكنّه أفتى بهدم المسجد، و علّل ذلك بما يُخشى من أن تشتدّ وطأهم ويُفسدون على النّاس دينهم، وتميل الجهلة ومن لا تمييز عنده إليهم، وقد أفتى بوجوب ضربهم وسجنهم والمبالغة في ضربهم، فإن أقاموا على ما هم عليه فقد اختلف في قتلهم⁶².

وأما هدم المسجد فسببه ما يؤسّس في قلوب النّاس والعامّة فساد ما هم عليه، لأنّهم إذا علموا أنّ ذلك فعل بقول أهل العلم يتيقّنون أنّ ذلك لفساد ما هم عليه، واجتنبوا قريهم⁶³. كما أفتى الفقهاء بإبطال أحباس الإباضية وتحويلها إلى الفقراء من أهل السنّة، كما أفتى بذلك سئل عيسى الغبريني رحمه الله⁶⁴. كما أفتى الفقهاء المالكية بعدم جواز

قبول شهادة الخارجي، واختلف قول الفقهاء في المكان الذي غالب سكّانه على مذهب الوهبيّة⁶⁵.

ت - مقالة التكفير أيّام دولة الموحّدين:

قامت دولة الموحّدين 541هـ/1141م⁶⁶ على أنقاض دولة المرابطين، على إثر دعوة دينيّة تزعمها محمّد بن تومرت الملقّب بالمهدي، وكانت تعاليم ابن تومرت أهمّ عامل أدّى إلى جمع العصبيّات الضّاربة في جبال مصمودة، مكوّنة دولة أحكمت سيطرتها على شمال إفريقيا وبلاد الأندلس. وقد بدأ محمّد بن تومرت حياته كطالب علم، سافر صوب المشرق لينهل من العلوم، ولقي جمعا من العلماء، تذكر الرواية التاريخيّة منهم الإمام الغزالي والطّروشّي، ثمّ عاد محمد بن تومرت إلى المغرب ودعا الناس إلى سلوك الطّريقة الأشعريّة⁶⁷، وجزم بتضليل من خالفها بل بتكفيره، وسمّى أتباعه الموحّدين-تعريضا بأنّ من خالف طريقته ليس بموحّد، و لكنّه ما أتى بطريقة الأشعري خالصة بل مزجها بشيء من الخارجيّة والشيعيّة حسبما يعلم بإمعان النّظر في أقواله وأحواله وأحوال خلفائه من بعده⁶⁸. كما تأثّر بطريقة المعتزلة في أبي الحسن وكان على مذهب الأشعري في إثبات الصّفات، وكان حريصا على أن لا يظهر ميوله الشيعة أمام العامّة⁶⁹.

وحرص ابن تومرت على تطبيق مبدأ تغيير المنكر على مذهب المعتزلة وبطريقة الخوارج⁷⁰، فصار يمشي في الأسواق، ويغيّر المنكر، ويكسر المزامير إلى أن بلغ ذلك أمير المرابطين عليّ بن يوسف، فأمر بإحضاره فرأى تقشّفه ثمّ سأله عن فعله فقال له: (أيّها الملك إنّما أنا رجل فقير⁷¹).

ثمّ أمر علي بن يوسف أن يقوم جمع من الفقهاء بمناظرة ابن تومرت، وقد تفتّن بعض مناظريه إلى النّفس الخارجي في تعاليمه، فقالوا أثناء المناظرة: ((هذا رجلّ خارجي⁷²)). والمتأمّل في التعاليم التومرتية ليلمح تلك الصياغة المدروسة لآراء مختلفة صياغة ذات نزعة انتقائيّة و ميكيفيلية، تسعى إلى تبرير ما سيقوم به الإمام تبريرا دينيا، ليمارس المهدي بن تومرت السلطتين الروحية والسياسية وسط جموع غارقة في حبه، متفانية في طاعته.

ونتيجة للتعاليم التي جاء بها ابن تومرت وبثّها بين أنصاره، صار أتباعه ينعنون خصومهم بالمجسمين⁷³ وقضى بتكفيرهم⁷⁴، في حين كان خصومهم يلقّبون أتباع المهدي بالخوارج⁷⁵. وقد صحب قيام دولة الموحدّين بعض الأعمال الفظيعة ضدّ الكثير من أتباعهم الذين شكّ المهدي بن تومرت في ولائهم، وتحوّف من غدرهم و من ذلك ما قام به من قتل لعدد كبير من أبناء القبائل في إطار عمليّة التمييز التي قام بها البشير⁷⁶. والتي راح ضحيتها خمس قبائل⁷⁷. ويرى عبد الواحد المراكشي أنّ الموحدّين كانوا يستحلون الدماء⁷⁸، وأعانهم على ذلك وهوّنه عليهم ما في طباعهم من خفة سفك الدماء عليهم، وهذا أمر جُبلت عليه فطرهم واقتضائه ميل إقليمهم⁷⁹.

ث- مقالة التكفير بعد زوال دولة الموحدّين وردود الفقهاء على دعائها :

عقب قيام دولة الموحدّين استشرى علم الكلام، وبدأت تُدرّس كتب ابن تومرت كأعزّ ما يطلب وغيرها، وبهذا انفتح الناس على دقائق علم الكلام، واستمرّ ذلك إلى ما لعد زوال دولتهم، فاستشرى علم الكلام، وبدأ بعض طلبة العلم يشكّكون في إيمان العوام لجهلهم بالحجج الكلاميّة الدالّة على وجود واجب الوجود.

وقد نعى ابن رشد ما وصل إليه الحال في أيّامه، بسبب سياسة الموحدّين في إشاعة علم الكلام فقال عن مُتكلّمي عصره: ((مزقوا الشريعة وفرقوا الناس كل تفریق⁸⁰)). وبهذا تخبرنا كتب النوازل عن المأساة الفكرية التي وصل إليها طلبة العلم، والتي وصلت بهم إلى تكفير المخالف، فقد بلغ الأمر ببعض من ينتسب للطلب إلى القول: ((بكفر من أثبت أن الله في السماء، لأنّ من اعتقد الجهة في حقّ الله تعالى -جلّ وعلا- فهو كافر بإجماع، ومن توقّف في تكفيره فهو كافر، فعورض هذا الطّالب في ذلك بما وقع بين الأئمة من الاختلاف في تكفير أهل الأهواء⁸¹)).

ونفهم من خلال جواب البرزلي عن هذه المسألة وإطالة النفس في نقل كلام العلماء عنها، إلى تفاقم الظّاهرة واستشعار الفقهاء لخطورتها، وقد قال البرزلي في نهاية تقريره

للمسألة: ((فتح مثل هذا الباب للعوام وسلوك طريق التأويل فيه إفساد اعتقادهم، وإلقاء تشكيكات عظيمة في دينهم، وتهيج لفتنتهم وقيامهم⁸²)).

وفي نازلة أخرى سئل فقيه تازي ومفتيها الفقيه أبو عبد الله محمد بن عبد المؤمن رحمه الله عن طائفة جزنائية من أحماس تازي، ونصّ السؤال من أوله إلى آخره: ((الحمد لله سيدي رضي الله عنكم، جوابكم في قوم فارقوا الجماعة، ويكفّرون المسلمين، ولا يأكلون ذبائحهم، ولا يُصلّون خلفهم، ويقولون من لم يؤمن بالمهدي بن تومرت فهو كافر، ويُفضّلونه على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ويقولون من لم يعلم اثني عشر بابا من التوحيد فهو كافر، وينقضون الوضوء بلمس ذوات المحارم، ويقولون من حلق ما تحت اللحية فهو مجوسي، بينوا لنا الردّ عليهم في ذلك وما يلزمهم)).

وتُظهر النازلة مدى غلو أتباع هذه الطائفة في المهدي بن تومرت، وكيف جرّهم الغلو إلى تكفير من حلق ما تحت اللحية، ونقض الوضوء بلمس ذوات المحارم. وقد كان جواب الفقيه بأن قال: (سألتم عن الجماعة التي فارقت الجماعة واتخذت دينا لنفسها⁸³).

وشيثا فشيئا بدأ التعمّق في دراسة المسائل الكلامية، ومحاولة إسقاط نظريات المتكلمين على الواقع، وبدأ الخوض في مسألة إيمان عوام المسلمين، وهي من مسائل علم الكلام، وتُظهر كتب النوازل مدى خطورة هذه المسألة التي تصدّي الفقهاء لمن خاض فيها، فقد سئل الشيخ أبو عبد الله محمد بن مرزوق عن فتوى أفتى بها رجل ممن تصدى للإقراء وهي أنه يجب على كل من تزوّج أن يسأل زوجته عن عقيدتها، فإن وجدها معتقدة ما يستحيل في حقه تعالى، فإنه يجب عليه أن يفارقها؛ لأنها مشرّكة ويتساءل المستفتي قائلاً: (فهل يا سيدي يجب هذا ويكون الحكم ما أفتى به أم لا؟) ثمّ يتساءل أيضا عن و الحكم فيمن وجد جاهلاً لم يعتقد غير قوله لا إله إلا الله محمد رسول الله كما تعلمونه من أكثر الناس⁸⁴.

و نلمس من خلال جواب ابن مرزوق مدى تحوّفه من هذه الظاهرة حيثُ بدأ جوابه بقوله: ((هذه إحدى الطوام، ثمّ بيّن خطورة فتح هذا الباب أمام العوام)). وقال: ((

فمهما فتح الباب على العوام، اختلّ النظام، فلا تحرك على العوام العقائد، وليكتفٍ بالشهادتين كما قال الإمام أبو حامد، وبهذا جاءت الأحاديث الصحاح، ولو وجب سؤال النساء عن هذا بعد التزويج، لو وجب قبله فلا يقدم نكاح امرأة تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، إلا بعد اختبار عقيدتها؛ لأن من أصولهم أن ما إذا طرأ قطع، فهو إذا قارن منع، نعم إن بدا من بعض الزوجات معتقد سوء من دون أن يطلب ذلك منها، نظر فيه بما يقتضي الحكم فيه؛ لأنه كثير جداً لا ينضب، والله الموفق بفضلُه⁸⁵)).

وتشبه هذه النازلة فتوى سئل عنها عبد الله العبدوسي عن رجل تزوج امرأة فوجد في عقيدتها فساداً هل يجب عليه مفارقتها أم لا؟ فأجاب: ((بأن فساد العقيدة على ثلاثة أوجه؛ منه ما هو كفر بإجماع، ومنه ما هو بدعة يفسق معتقده ولا يكفر، ومنه ما هو مختلف فيه هل هو كفر أم لا⁸⁶)).

وأجاب في موضع آخر أنّ النساء المسلمات تحمل على ظاهرهن من صحة إسلامهن وعقائدهن، ونكّل سرائهن إلى الله سبحانه، غير أنه إذا غلب على ظنّه فساد في عقيدتها، فإنه يباحثها في ذلك، ويجب عليه تعليمها ما جهلت من ذلك. ثم أشار العبدوسي إلى ما كان يفعله الفقهاء المقتدى بهم، حيث كان يأمر شهود عقد النكاح باختبار عقيدة المرأة عند إرادة العقد عليها لغلبة الفساد على عقائدهن، فكانوا يفعلون ذلك، فهدى الله بذلك أمة عظيمة منهم إلى عقائد الحق، ثم وعد العبدوسي بأنه سيضع تأليفاً مختصراً فيما لا بدّ للعلماء من اعتقاده بعبارة بسيطة، وأدلة عقلية ونقلية تُدرِكُهَا عقولهم⁸⁷.

ج- تصدّي أبو جمعة المغراوي لمقالة تكفير عوام المسلمين خلال القرن العاشر الهجري:

مع مطلع القرن العاشر الهجري، ولا سيما بعد إقبال الناس على العقائد السنوسية و عقيدة الجزائري وغيرها من كتب العقائد الممزوجة بالبراهين الكلامية، عادت ظاهرة

تكفير المقلّد في العقائد إلى البروز على السطح، وهو ما دفع بأيّ عبد الله محمّد بن محمّد بن أحمد بن أبي جمعة المغراوي، بالتصدي لهذه الظاهرة من خلال تأليف كتاب الجش والكمين والذي عالج فيه مسألة "إيمان عوام المسلمين" و "حكم التّقليد في مسائل الاعتقاد" و "إثبات اسم الإيمان على من يجهل براهين وجود الخالق ومباينته للمخلوقين، وعدم مشابته واجب الوجود لجائز الوجود".

و يظهر من خلال مقدّمة المؤلّف أنّ هذا الكتاب هو جوابٌ على سؤال ورد عليه من بعض الإخوان والعوام، حيث يقول: ((فقد سألت جماعة من إخواني المسلمين وجماعة كثيرة من عوام المسلمين، وفحوى السؤال هو "مسألة إيمان المقلد في العقائد ومن لا يعرف الدلائل والبراهين، وينزه الله ورسوله وينطق بالشهادتين لا زائد هل إيمانه صحيح أم هو كافر وإيمانه فاسد". وأضاف قائلاً "وذلك بأن بعض الطلبة كّفّر عامّة المسلمين بعدم معرفتهم لذلك- أي للبراهين العقلية والحجج الكلاميّة-)، وأراد استباحة أموالهم وفساد أنكحتهم وغير ذلك ممّا ينشأ عن التكفير بزعمه⁸⁸). وهكذا انتقلت هذه المسألة من حيّز التنظير والتّعميم إلى حيّز التّكفير والتّعيين، مع الحكم بفساد الأنكحة، وتعطيل الموارد واستباحة الدّماء.

وتُظهر مقدّمة كتاب الجيش والكمين أنّ المردود عليه لم يكن من الجهال، بل هو على حدّ قول أصحاب النّازلة: ((ممن يدرّس العلم ويدّعيه، ويزعم أنّه ممن يحفظه ويعيه، ويتعرّض في علم التّوحيد للتّدريس والفتوى و يميّز بزعمه بين الصّريح والتّجوى، ويرى أنّه ممن ينصح المسلمين والإسلام، وينصر دين مولانا محمّد عليه الصّلاة والسّلام، أذاه علمه إلى الحكم بتكفيرهم المؤدّي إلى ما ظهر في السؤال من تقريرهم ظلّنا منه أنّ كلّ ناطق له أتباع)).

ومّا زاد في يقين الشيخ بوجوب ردّ هذا القول الخطير هو شيوع هذا القول، واشتهار الفتوى به، وعموم البلوى بسببه⁸⁹. وقد قام الشّيخ بسرد أقوال علماء الأُمَّة من الأشاعرة، وأئمّة المذاهب القائلين بعدم وجوب النظر على العوام، صحّة إيمان المقلّد،

ومن هؤلاء الأعلام أبو الوليد بن رشد، و أبو حامد الغزالي، والشيخ أبو عبد الله بن أبي جمرة، والقشيري و العز بن عبد السلام والمقترح، وسيف الدين الأمدي والقرطبي وأحمد بن عبد الله الجزائري⁹⁰ بل نقل تكفير القاضي ابن رشد لمن كفرهم، ولهذا قال أحمد بن زكريا في عقيدته

قد حكم القاضي ابن رشد للعوام بكفر من كفرهم في ذي المقام⁹¹

وقد كان المؤلف يعلم أنّ أقوال هؤلاء العلماء لن تكتسي صبغة الإلزام، ما لم يستدل لها بنصوص الوحي من كتاب وسنة، والإجماع المرتكز عليهما. ولذلك ساق الأدلة القاضية بعدم وجوب النظر وجواز التقليد في مسائل الاعتقاد، ويمكن تلخيص هذه الأدلة كالآتي:

- 1- إجماع أصحاب القرون الفاضلة منعقد على صحة إيمان العوام، وعدم وجوب الاستدلال بالبراهين الكلامية الحادثة التي لم تحدث بعد القرون الفاضلة.
- 2- أنّ النبي وأصحابه لم يلزموا أجناف العرب وعوامهم، ممّن كان يبول في المسجد ونهى عن اتّخاذ الكلاب فلم ينته وغير ذلك⁹².
- 3- عدم وجوب إلزام الناس بهذه البراهين حيث قال: ((هذه الأدلة والبراهين جرّدها المتكلمون، ورتبها الجدليّون، وإّما أحدثها المتأخرون⁹³)).

وفي خاتمة هذا المقال نلاحظ أنّ مقالة التكفير في بلاد المغرب الإسلامي قد ظهرت مع ظهور دعاة الخوارج الذين فرّوا إلى المغرب بعد أن استلحمتهم سيوف خلفاء بني أمية وعمّالهم في الأقاليم، تلك المقالة التي تحمّس لها البربر نتيجة ظلم عمّال بني أمية، وفجّرت الثورة البربرية الكبرى التي عجّلت بانفصال المغرب الإسلامي عن المشرق، ثمّ ظهرت بعد ذلك خصوصا مع تفشّي علم الكلام. وقد حاول الفقهاء التصدّي لهذه المقالة، وبيّنوا للناس خطرها، وأبدوا العمال في قتالهم أصحابها. كما ساهم الفقهاء في صرف الناس عن أبي يزيد بن كيداد، بعد أن قاموا بتأييده، حين خذلهم وتخلّى عنهم، ومنذ ذلك الحين تشدّد الفقهاء في التعامل مع بقايا الفرق الخارجيّة كالوهبية والنكارية

وغيرهم من طوائف الإباضية، فأفتوا بإخلاء مساجدهم، ومصادرة أوقافهم، وسجنهم والتنكيل بهم حتى يتركوا نختهم. ومع قيام دولة الموحّدين وذبوع علم الكلام، بدأ تكفير المقلّد في العقائد والحكم بعدم صحّة إيمانه يظهر عند المشتغلين بعلم الكلام، ممّا دفع بالفقهاء إلى التصدّي لهذه الظاهرة والردّ على المرّوجين لهذه المقالة.

الهوامش

- ¹ - أبو الفتح الشهرستاني، الملل و النحل، مؤسسة الحلبي، ج1 ص124؛ اسماعيل عبد الرزاق، الخوارج في بلاد المغرب حتّى منتصف القرن الرابع الهجري، ط2، الدار البيضاء-المغرب:- دار الثقافة، 1985، ص44.
- ² - عبد الرحمن ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشّان الأكبر، تحقيق: خليل شحادة وسهيل زكار، ط2، بيروت: دار الفكر للطباعة والنّشر والتوزيع، 2001م، ج3 ص212-214.
- ³ - عيسى الحريري، الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي(حضارتها وعلاقتها الخارجية بالمغرب والأندلس) 160هـ-296هـ، الكويت: دار القلم للنشر والتوزيع، 1987، ط3، ص55.
- ⁴ - الإباضية: هم أتباع عبد الله بن إباح، وقد خالف شيخهم نافع بن الأزرق سنة 64هـ/683م في تكفير القعدة، و رأى حرمة دماء المسلمين، وسي ذراريهم وغنيمة أموالهم، واعتبر دار مخالفه دار توحيد إلا معسكر السلطان فإنّه دار حرب، وأجاز مناكحة مخالفيه وموارثتهم وغنيمة أموالهم من السلاح والكرّاح عند الحرب، وحرّم قتلهم وسيهم في السرّ غيلة إلا بعد نصب القتال وإقامة الحجّة، كما انفرد عن سائر فرق الخوارج بقوله في مرتكبي الكبيرة أنّهم موحدون وأنهم كفّار نعمه، لا كفّار ملّة، وتوقّف أيضا في أطفال المشركين، وقد خرج عبد الله بن إباح على مروان بن محمّد آخر خلفاء بني أمية. فوجّه إليه عبد الله بن محمّد بن عطية، فقاتله ببثالة فهزمه وقتله، فانتهج أتباعه أسلوب الكتمان الشهرستاني، المصدر السابق، ج1 ص134؛ أبو الحسن الأشعري، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلّين، تحقيق: نعيم زرزور، المكتبة العصرية، 2005، ط1، ج1 صص95-107؛ محمّد بن جرير الطّبري، تاريخ الرسل والملوك، بيروت: دار التّراث، 1387هـ، ج5 ص568.
- ⁵ - الصفرية: يُنسبون إلى مؤسس مذهبهم عبد الله بن الصّفار، والذي انفصل عن نافع بن الأزرق بعد أن خالفه حول مسألة القعدة سنة 65هـ/684م، وذلك أنّ عبد الله بن صّفار لم يكفّر القعدة عن القتال إذا كانوا موافقين في الدّين والاعتقاد، ولم يحكم بقتل أطفال المشركين وتكفيرهم، كما قال بجواز التقيّة في القول دون العمل، وأجاز بعض زعمائهم تزويج المسلمات من كفّار قومهم في دار التقيّة، غير أنّهم استمروا على القول بكفر مرتكب الكبيرة. يُنظر: طاهر بن محمّد الأسفرائيني، التّصوير في الدّين وتمييز الفرقة النّاجية عن الفرق الهالكين، تحقيق: كمال يوسف الحوت، لبنان: عالم الكتب، 1983، ط1، ص53.

- ⁶ - أبو العباس الدرجيني، طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق: إبراهيم طلاوي، قسنطينة: مطبعة البعث، ج2 ص207؛ أحمد بن سعيد الشماخي، سير الأئمة الإباضية، القاهرة، 1972، ص 215؛ محمود إسماعيل، المرجع السابق، ص46.
- ⁷ - محمود إسماعيل، المرجع السابق، ص48.
- ⁸ - عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج7 ص16.
- ⁹ - محمود إسماعيل، المرجع السابق، ص49.
- ¹⁰ - الشماخي، المصدر السابق، ص102؛ الدرجيني، المصدر السابق، ص173.
- ¹¹ - حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، مطبوعات مهرجان القراءة للجميع، 2004، ص72.
- ¹² - عبد العزيز الثعالبي، تاريخ شمال إفريقيا من الفتح الإسلامي إلى نهاية الدولة الأغلبية، جمع وتحقيق: أحمد بن ميلاد ومحمد إدريس، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1990، ط2، ص137.
- ¹³ - عبد الرحمن بن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس، تحقيق: عبد الله أنيس الطباع، بيروت: مدرسة الكتابة ودار الكتاب، 1964، صص88-89.
- ¹⁴ - أبو العباس الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق: أحمد الناصري وجعفر الناصري، الدار البيضاء: دار الكتاب، 1954م، ج1 ص159.
- ¹⁵ - ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ج.س. كولان وليفي بروفنسال، بيروت: دار الثقافة، 1983م، ج1 ص52.
- ¹⁶ - حسين مؤنس، المرجع السابق، ص65.
- ¹⁷ - نشير إلى أنّ خلفاء بني أمية ساهموا بشكل كبير في تأجيج الصراع بين القيسية واليمية، إذ كان كلّ رجالهم ومقاتليهم من العرب، فسعى بنو أمية أن يضمّنوا ولاء الجند، لذلك قاموا بالترقية بين الجانبين، فمرة يجابون القيسية على اليمية، ومرة أخرى يجابون اليمية على القيسية، فأثاروا بذلك مشكلة عويصة جدا، لأنهم أحيوا العصبية القديمة، ولكن على نطاق الدولة الواسع. يُنظر: حسين مؤنس، المرجع السابق، صص70-71.
- ¹⁸ - عيسى الحريري، المرجع السابق، ص51.
- ¹⁹ - محمد الطالبي، الدولة الأغلبية-التاريخ السياسي-، مراجعة: حمادي الساحلي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط2، 1995، ص46.
- ²⁰ - غابرييل كامب، البربر ذاكرة وهوية، ترجمة: عبد الرحيم حزل، الدار البيضاء-المغرب: إفريقيا الشرق، 2014، صص171-172.
- ²¹ - استمرّ عمّال الخفاء بالمغرب الإسلامي في اتّباع سياسة الاستكثار من السّبي، إلى أن تولّى عبد الرحمن بن حبيب، والذي أرسل إلى أبي جعفر المنصور يقول له فيها: ((إنّ إفريقية اليوم إسلامية كلّها، وقد انقطع السّبي منها والمال، فلا تطلب مني مالا، فغضب المنصور وأرسل إليه يتهدّده)). علي بن محمد بن الأثير، الكامل في التاريخ، ابن الأثير، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط1، بيروت: دار الكتاب العربي، 1417هـ/1997م، ج4 ص501.

- 22- أبو العباس البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق: عبد الله أنيس الطباع، بيروت: مؤسسة المعارف، 1987، ص324.
- 23- عيسى الحريري، المرجع السابق، ص52.
- 24- غابرييل كامب، المرجع السابق، صص 171-172.
- 25- إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، الدار البيضاء: دار الرشاد الحديثة، 2000م، ج1 ص84
- 26- محمود إسماعيل، المرجع السابق، ص41.
- 27- حسين مؤنس، المرجع السابق، ص77.
- 28- ابن عذارى، المصدر السابق، ج1 صص 51-52.
- 29- محمود إسماعيل، المرجع السابق، ص61.
- 30- المرجع نفسه، ص64.
- 31- الناصري، المصدر السابق، ج1 صص 162-163.
- 32- ابن عذارى، المصدر السابق، ج1 ص55.
- 33- ابن الأثير، المصدر السابق، ج4 ص503.
- 34- عيسى الحريري، المرجع السابق، ص89.
- 35- حسين مؤنس، المرجع السابق، ص73.
- 36- المرجع نفسه، ص73.
- 37- محمود إسماعيل، المرجع السابق، ص5.
- 38- ابن خلدون، المصدر السابق، ج3 صص 212-214.
- 39- المصدر نفسه، ج3 ص182.
- 40- ابن الأثير، المصدر السابق، ج4 ص503.
- 41- ابن خلدون، المصدر السابق، ج6 ص146.
- 42- عبد الله بن محمد المالكي، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط2، 1994، ج1 ص103.
- 43- ابن الأثير، المصدر السابق، ج4 ص418.
- 44- المالكي، المصدر السابق، ج1 ص31.
- 45- المصدر نفسه، ج1 صص 164-172.
- 46- المصدر نفسه، ج1 ص215.
- 47- المالكي، المصدر السابق، ج1 صص 155-156.
- 48- المصدر نفسه، ج1 ص177.
- 49- المالكي، المصدر السابق، ج1 صص 184-186.
- 50- المصدر نفسه، ج1 ص269.

- 51- ابن عذارى، المصدر السابق، ج1 صص186-188.
- 52- المصدر نفسه، ج1 ص188.
- 53- ابن خلدون، المصدر السابق، ج3 صص212-214.
- 54- ابن عذارى، المصدر السابق، ج1 ص189.
- 55- القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، تحقيق: محمد بن شريف، المحمدية-المغرب-: مطبعة فضالة، ط1، ج5 صص304-306.
- 56- القاضي عياض، المصدر السابق، ج5 صص304-306.
- 57- موسى لقبال، دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها إلى منتصف القرن الخامس الهجري، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1979م، ص 428.
- 58- القاضي عياض، المصدر السابق، ج5 صص304-306.
- 59- بوزيانى الدراجي، دول الخوارج العلويين في بلاد المغرب والأندلس، الجزائر: دار الكتاب العربي، 2007، ص201.
- 60- أبو القاسم البرزلي، نوازل البرزلي "جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام"، تحقيق: محمد الحبيب هيلة، ط1، بيروت: دار الغرب الاسلامي، 2002م، ج1 ص395.
- 61- أحمد بن يحيى الونشريسي، المعيار العرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، طبع بإشراف محمد حجي، بيروت: دار الغرب الإسلامي 1981م، ج2 صص445-446.
- 62- الونشريسي، المصدر السابق، ج2 ص446.
- 63- الونشريسي، المصدر السابق، ج2 ص447.
- 64- المصدر نفسه، ج7 ص363.
- 65- المصدر نفسه، ج10 ص191.
- 66- ذكر ابن عذارى عن سبب تسمية ابن تومرت لهم بذلك لأجل حوضهم في علم الاعتقاد الذي لم يكن أحد من أهل ذلك الزمان في تلك الجهة يخوض في شيء منهم، المرجع السابق، ج1 ص150.
- 67- يقول ابن خلدون عن طريقة ابن تومرت: ((وكان له في طريقته الأشعرية إمامة وقدم راسخة، وهو الذي أدخلها إلى المغرب كما ذكرناه، وتشوق طلبة العلم بتلمسان إلى الأخذ عنه وتفاوضوا في ذلك)). المصدر السابق، ج6 ص167.
- 68- ابن خلدون، المصدر السابق، ج6 ص303.
- 69- عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار إفريقية والمغرب، تحقيق: محمد سعيد العريان، منشورات المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالجمهورية العربية المتحدة، ص255.
- 70- عبد المجيد النجار، سيرة المهدي بن تومرت، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1983، ط1، ص353.
- 71- ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ط1، تونس: مطبعة الدولة التونسية، 1286 هـ، ص108.

- 72- ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص108.
- 73- البيهقي أبو بكر الصنهاجي، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، الرباط-المغرب-: دار المنصورة، 1971، ص 35.
- 74- المصدر نفسه، صص9-10؛ عبد المجيد النجار، المرجع السابق، ص354.
- 75- البيهقي، المصدر السابق، ص38.
- 76- المصدر نفسه، ص39.
- 77- المصدر نفسه، ص 39.
- 78- يقول عبد الواحد المراكشي: ((وأما خفة سفك الدماء عليهم فقد شهدت أنا منه أيام كوني بسوس ما قضيت منه العجب)). المصدر السابق، ج1 صص143-144.
- 79- المصدر نفسه، ص259.
- 80- علي أومليل، السلطة السياسية والسلطة الثقافية، بيروت: مركز دراسات الوحدة الإسلامية، 1998، ط2، ص 208.
- 81- البرزلي، المصدر السابق، ج6 صص199-200.
- 82- البرزلي، المصدر السابق، ج6 ص201.
- 83- الونشريسي، المصدر السابق، ج2 ص453.
- 84- الونشريسي، المصدر السابق، ج3 صص86-87.
- 85- الونشريسي، المصدر السابق، ج3 صص86-87.
- 86- المصدر نفسه، ج3 صص86-87.
- 87- المصدر نفسه، ج3 ص88.
- 88- محمد شقون الوهراني، الجيش والكمين لقتال من كفر جماعة المسلمين، طنطا-مصر-: دار الصحابة للتراث، 1992، ط1، صص17-18.
- 89- المصدر نفسه، ص18.
- 90- ألف الغزالي إلجام العوام عن الخوض في مسائل الكلام، وقال فيه أنّ للناس في هذا العلم غلو وإسراف، فمن قائل أن الخوض فيه بدعة وحرام، و نُقل ذلك عن مالك والشافعي والإمام أحمد بن حنبل، وسفيان الثوري، وجميع أهل الحديث من السلف، ومن قائل أنّه واجب على الكفاية يحمله من قام به وقدر عليه، ومن قائل أنّه واجب على الأعيان، وأنّه أفضل الأعمال وأعلى القربات. المصدر نفسه، صص19-20؛ ص26.
- 91- المصدر نفسه، ص28.
- 92- محمد شقرون، المصدر السابق، ص21.
- 93- المصدر نفسه، ص22.